تحالف العربية والغنوة بمباركة العقل والعاطفة

رنا الحكيم بكداش

• الرسم بالكلمات٢...

تزخر رفوف المكتبات بكتب تحمل عناوين مثل "تعلّم العربية في شهر" أو "تعلّم الانكليزية في أسبوع" وقد تذهب بعض العناوين في المبالغة في رهانها على تعليم اللغة الحية الجديدة وتختصرها بعدة أيام! وقد تكون ردة الفعل الاولى لمن يقرأ هذه العناوين هي الإحساس بالتحدي والفضول في آنٍ واحد. التحدي أولاً لأنَّ العنوان يثير حفيظة القارئ وكأنه يقول له: "جرّب وسترَ بنفسك" أما الفضول فهو من القارئ الذي تحدثه نفسه دوماً بالاسراع في تعلّم اللغة الجديدة.

وبغض النظر عمَّا اذا كانت الكتب هذه مفيدة وإن كانت تؤدي المهمة التي وُضعت من أجلها أي تعليم اللغة الحية الجديدة إلا أنها تبدو اسماء جامدة. ولعلّ الرهان عليها واعتمادها كطريقة تعلّم للغة حيّة قد لا يؤدي إلى نتيجة لأنها تهمل عامل الوقت وما يحمله من فعل وردات فعل وتفاعل تقوم جميعاً على العقل والاهم على العاطفة، وقد ترجح العاطفة. فكونها سريعة يعني أنها طريقة تعلُّم أوتوماتيكية، أي على المتعلّم أن يحفظ غيباً لوائح مفردات يستطيع أن يخرجها وقت تدعو الحاجة أو في حالات محددة. اذن يغيب التفاعل هنا وتغيب العاطفة أيضاً لأن الطريقة هذه لا تشد المتعلّم بأي وسيلة فليس فيها أي تبادل بينها وبين المتعلم: كالحوار مثلاً والصوّر والمنشّط (المعلم)!

ولكن ما يطمئن المتعلّم الجدّي أن طرائق التعليم ليست كلها متشابهة وهذا ما يدعو إلى التفاؤل! ففي مقابل المواد المعلّبة الجاهزة والمعدَّة سلفاً لكل مستهلك بحيث تشكل وجبة لغة سريعة غب الطلب لكلّ متعلّم على عجلة من أمره، ما زال العديد من مراكز تعليم اللغات الحيَّة يصرف مجهوداً جمّاً ويستهلك الوقت الكافي في سبيل اعداد مواد تتمتع بمقومات تقترب الى حدّ كبير الى واقع اللغة في تعلّم اللغة الحية الجديدة. ولا يُفهم من هذا الكلام اننا سنقوم بمسح حول مراكز التعليم أو أننا سنضع جردة بالطرائق والمواد الموجودة على الساحة في العالم، بل ستكتفي مساهمتي بتسليط الضوء على المواد التي وضعها مركز الأبحاث والدراسات العربية٣ والمعروف بالمختصر الفرنسي CREAوقد احتفل في العام ٢٠١٥على مرور ٧٠ عاماً على تأسيسه. وقد تكون هذه السنوات الطويلة من الدلائل الكافية لما لهذا المركز من الخبرة في اعداد مواد تعليم العربية وطرائقها.

• غنّيلي شوي شوي...

أنَّ أول سمة أو علامة فارقة في المواد التابعة للمركز هي هذا الهامش الكبير للتمارين أو النشاطات التي تحاكي العاطفة والقلب. فمن مواد "من الخليج إلى المحيط٤ "وصولاً إلى مواد "توابل وحريره" تحتلّ العاطفة حيزاً مهماً في الدروس. والعاطفة بتحديدها المجرّد تحمل عدة تفاصيل في معناها: رجل عطوف٦: يحمي المنهزمين. وعطف عليه: رجع عليه بما يكره أو له بما يريد. تعطّف عليه: وَصَله وبرَّه. تعطّف على رَحمه: رقّ لها. والعاطفة: الرَّحم. صفة غالبة. "والعواطف على الإنسان بما يحب..." تجتمع في هذه المفردة صفات عديدة ولعل ابرزها صلة الرحم والرقة والحماية...

كيف كانت تعتمد إذن مواد "من الخليج إلى المحيط" في سبعينيات القرن الماضي ومواد "توابل وحرير" حالياً على العاطفة؟ "البائع مشغول" أو "الشاي خمر المؤمنين" في مواد "من الخليج إلى المحيط" تسترجعان أبرز ما ورد في الدروس من خلال غنوة. طبعاً لا تتبع الغنوة كل درس بل تأتي لتولّف مجموعة الدروس فتذكر المتعلّم بكل المكتسبات وتعمل على ترسيخها له. الغنوة تعتمد الجمل البسيطة والموجزة وتستند الى حالة لطيفة فتخلق حالة من الفرح، كيف؟

أولاً من خلال الموسيقى. فالمتعلّم الذي ينهي حالة تواصلية في الدرس سواء أكانت مرئية أو مسموعة أو مقرؤة نراه يسترجع ما تعلّمه من مفردات أو تراكيب أو حتى القواعد من خلال غنوة خفيفة

وقصيرة تركز على ابرز ما ورد في الدروس كل ذلك في قالب موسيقيّ جميل. ولا يتم تذكير المتعلّم بالإستعادة الببغائية بل من خلال دينامية جديدة.

ويقول نص: "الشاي خمر المؤمنين":

"في قريتي
الناس طيبون
لا خمرة ولا مجون
لكنهم في عصر كل يوم يجلسون في حلقة
ويشربون الشاي ثم يهتفون: الله ...
الشاي خمر المؤمنين".

الحالة خفيفة ظريفة لا تعلك المضمون عن طريق التكرار بل تلمّح تلميحاً، وهي موقّعة وتلبس لباس الغنوة من لحن وصوت.

ولا تفتتح الغنوة الدروس بل هي في هذه المواد تولف مجموعة من الدروس ويكتشف المتعلّم الغنوة في الدرس السابع مثلاً، والغنوة تحاكي العاطفة وتذهب مباشرة الى القلب ويرتاح اليها العقل والمتعلّم بعد أن يكون قد كوَّن مخزوناً محدداً من التراكيب والمفردات، يستطيع أن يسمع الغنوة ويفهم كلماتها ويفرح بلحنها ويتم التفاعل ويكون هدف الغنوة قد تحقَّق.

أمّا أغنية البائع مشغول فتختصر بكلماتها البسيطة وايقاعها صورة البائع وهو حالة مشهد مألوف في أزقة المدن العربية ويقول النص:

"البائع مشغول
في الشارع يمشي ويقول
أبيع بطاطا أبيع بصل
أبيع جزر
وليمون ((عكا)) وتفّاح ((سير)) وتين الجبل
أبيع بطاطا
أبيع بصل".

أما الإضافة في الغنوة فهي أسماء الفاكهة والمناطق المختلفة فكيف لا يحفظ المتعلّم اسماء مثل تفاح وليمون وتين... وقد قُدّمت اليه على طبق من الصوت والصورة والموسيقى؟

أمّا مواد "توابل وحرير" فتفتتح الدروس بالغنوة المصوّرة "يا ليل يا عين". وموضوعها شخصٌ يناجي الحبيب:

"يا ليل أين حبيبتي
أين قلبي أين عيني
يا ليل يا عين
أين أنت يا حبيبتي"

وقد تبدو هذه الحالة مألوفة في عالمنا الذي يعيش ويقتات من اللوعة والحزن، تعود الى مناجاة الليل وسؤاله عن الحبيب وكلنا يذكر:

"كليني لهمّ يا اميمةُ ناصبِ
وليلٍ اقاسيه بطيءِ الكواكبِ٧".

الاّ أنها مادة جديدة لكلّ من يدخل إلى اللغة العربية للمرة الأولى.

واثارة عاطفة المتعلّم لا تكون من خلال الحديث عن مدنٍ أو رحلات ترفيهية أو أي مواضيع تتعلق بالآخرين فحسب. فقد تصيب هذه المواضيع أحياناً وتخفق أحياناً كثيرة في استمالة المتعلّم لها. واستمالة المتعلّم يمكن أن تتم باثارة مواضيع إنسانية تمس قلبه بل شغافه أي لها علاقة بالعلاقات الطبيعية بين الناس، كلما كانت طبيعة العلاقة بسيطة وتخص كل إنسان كلّما سهل التماثل بها أو اعتمادها والتماثل يتجلّى خاصةً في الغنوة "أدرس العربية" فهذه الغنوة التي تولف الوحدتيْن الاولى والثانية من المستوى الأول تأسر المتعلّم في كلماتها وألحانها، لأنّها تتكلّم عنه وعن دروسه وعن مهمته الحالية أي تعلُّم اللغة العربية:

"أدرس العربية
وأسمع العود والناي
وأقول ياي ياي ياي"

فالغنوة لسان حال المتعلّم. صحيحٌ أنها توّلف مجموعة الدروس، ولكنَّها تطمئنه لأنها تأتي على حالة تشبه حالته تماماً. بمعنى آخر يستحيل هو (أي المتعلّم) إلى موضوع الغنوة فيتماهى بالشخصيات التي حلَّت في الدروس ويتحوّل بالتالي إلى شخصية مثلها، إلى البطل. فلا يمكن لأي إنسان ألاَّ يتعاطف مثلاً مع شخص يناجي الحبيب مثل في أغنية "يا ليل يا عين" ولا بدّ له أن يجد توأماً لروحه في احدى الشخصيات من المواد.

والتنويع ليس مستبعداً في المواد فهذا لا يعني اطلاقاً أن بقية المواضيع ممنوعة أو لا يمكن التطرّق اليها بل بالعكس كلما كثرت المواضيع وكانت معاصرة كلما استقبلها المتعلم على الرحب والسعة.

والحداثة والتكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي... كلّها مواضيع تطرّقت اليها "توابل وحرير" واخرجتها بحلّة موسيقية. "نت نت انترنت" أغنية كما يدل عنوانها تأتي على موضوع الرتابة. فيكتشف المتعلّم كلمات خاصة بالرتابة ويتذكر الحالة أو الحالات التواصلية التي قطعت من خلال الدروس من خلال الموسيقى الممتعة والايقاع الأخاذ. ولكن وبالرغم من أنَّ الموضوع يتعلَّق بالرتّابة (وهو موضوع جامد نسبياً) تتدرَّج الغنوة لتدمج الطرفة من خلال اشراك الشخصيات.

ومواد "توابل وحرير" لا تبقي المتعلّم معزولاً عن الواقع بل تغمز له من قناة الغنوة: "كل موسم وانتم طيبون٨" عن الآفات الاجتماعية التي يمكن أن يعاني منها أي مجتمع: كالرئيس والمرؤوس والعبد والسيّد والحرية والعبودية ... فمن خلال أنواع الفاكهة تتسلل المراتب الدبلوماسية والسياسية.

"جلس البطيخ على عرشه ملكاً
عن يمينه التفاح وزيراً
عن يساره الإجاص وزيراً
كل موسم وانتم طيّبون".

ولا تكتفي الأغنية بإدراج المفردات فحسب بل تحمل في طياتها أبعاداً اخرى كأنْ تختصر بجملة واحدة، تختتم بها الأغنية، حالةَ شعب بأكمله:

"تحلق النواب عنباً وكرزاً
عيّنوا الليمون سفيراً
ومعه الخوخ سفيراً
كل موسم وانتم طيّبون
وأكل الشعب خبزه يابساً"...

فكأن النص بني على قسمين الجملة الأخيرة من جهة وما تبقى من جهة اخرى.

• أنا قلبي (وعقلي) دليلي...

أين وقع الغنوة في المواد هذه؟ هل اعتمادها على القالب الموسيقي وحده هو ما يجعلها تمس العاطفة وبالتالي تذهب مباشرة الى قلب المتعلم وتعرّج على عقله؟

قد يكون الايقاع والموسيقى عاملان في تثبيت الغنوة في اذهان المتعلّمين ولكن هذا ليس كافياً لوحده بل ترافقه عوامل عدة اخرى أولها أن نؤمّن للمتعلّم جواً يسمح له بالتعلُّم، "لا أحد يمكنه أن يعلم اللغة فعلاً بل يمكنه أن يوفر الظروف التي فيها سوف تتطور اللغة تلقائياً وبطريقتها الخاصة"٩. فالمتعلّم لا يشعر بأي غربة في أثناء عملية التعلُّم بل يحس أنّه في البيئة المناسبة لأن جهود المنشط من جهة وتوافر مواد تفاعلية من جهة اخرى تؤمن له جواً يسمح له بتعزيز مكتسباته فيصبح "طليقاً" في التعبير الحر.

والتفاعل في الصف مهم جداً يحفّز المتعلّم على المثابرة. فيحسُّ أنه موضع اهتمام دائم في أثناء الحصص التعليمية، مما يزيد من رغبته في سبر أغوار اللغة الحيّة الجديدة كتابةً ومشافهةً ويجعله أقرب إلى تحقيق أهدافه في التعبير اليسير عن مقاصده.

فالحالات التواصلية التي تقدّمها المواد ليست خيالية بل تنبثق من الضغوط الإجتماعية والضرورات اليومية ومشاغل الحياة كلّها بحلوها ومرّها اذن تعكس الواقع بكل صدقية. ويأتي المحتوى وثيق الصلة بالحياة العامة وبالاهتمامات اليومية، فيستعمل المتعلّم اللغة بشكلٍ حيوي وطبيعي، ويترك لقلبه ولعقله مهمة التفاعل والتأثر بما يتلقاه. والتفاعل طبيعي، لأنه عندما تحتل العاطفة موقعها في أي عمل، تصبح القدرة على ايصال المعنى أسهل.

وقد يتساءل البعض: لماذا استعمال الغنوة؟ ألا يمكن التعلُّم بالطرائق العادية؟ والجواب بسيط: فالموسيقى والغنوة بالتحديد تكسران "القالب الجامد للحصة" وتخلق بيئة يرتاح فيها المتعلّمون لبعضهم البعض... بمعنى آخر تؤمن الموسيقى والغنوة جواً من التوازن بين الجميع وهذا يؤدي حتماً إلى الإنسجام بين المتعلمين.

وكل هذا من شأنه الى حد بعيد أن يؤمن الشعور بالأمان والثقة بنفسه، ولا نفشي سراً عندما نقول أنَّ تأمين جو الثقة والتوازن والتفاعل في الصف يؤدي إلى فك لسان المتعلّم ودفعه الى التعبير وهذا ما تطمح إليه كل المواد. أما النقطة الاهم فهي أنَّ متعلّم اللغة الحيّة الجديدة يستعملها ويتواصل بها بشكل قد يقترب من الابتكار فيسمح لنفسه بأن يكون خلاقاً.

وهذا لا يعني إطلاقاً الفوضى بل هو إبداع بنّاء كما يعبّر عنه شومسكي عندما كتب:"الإبداع الحقيقي يعني عملاً حراً ضمن النظام ". والنظام موجود في مواد "توابل وحرير" و"من الخليج إلى المحيط" ولكنَّه نظام تفاعلي يشجع المتعلّم على الإنخراط فيه. وهو نظام هادف وموجَّه يقيس حاجات المتعلّم ويقدم له ما هو بحاجة إليه على جرعات تشبع من غير أن تحدث تخمة فلا إفراط ولا تفريط، بل ينال المتعلّم حاجته بحسب وتيرته هو وقدرته هو ويترك للوقت مهمة الترسيخ. وعامل الوقت أساسي في التعلُّم فهو الذي يرتّب المعلومات المتدفقة ويبوبها ويوّزعها بحسب مواقعها المناسبة حيث تستقر فتترسخ في الأذهان ويحفظها القلب والعقل على حدٍ سواء .

وبعد،

تحتلّ مواد "من الخليج إلى المحيط" ومواد "توابل وحرير" مكانها على الرفوف بين بقية المواد، ولكن الأهم أنها تحتلُّ مكانها في القلوب. فالمتعلّم يكتشف ويحفظ ويغني ويتفاعل ويضحك ويحزن... باختصار المتعلّم ينخرط في الحالة (الدرس) ويعيشها وبذلك يتخطّى دور التقليدي للمتعلّم المتلقي. وبهذه الميزة تختلف من "الخليج الى المحيط" و"توابل

وحرير" عن المواد الأخرى التي تتعامل مع اللغة الحية الجديدة كلغة خدمة. فالمتعلّم الذي يرغب بجانب واحد من اللغة الجديدة مثل الجانب الإقتصادي أو السياسي... قد يدق باب المواد الأخرى لتلبي له حاجة آنية، محدَّدة مثل رغبته في حفظ لوائح مفردات خاصة بالسياسة أو بالإقتصاد... ولكن ينحصر دوره كمتلق وتبقى اللغة بالنسبة اليه أداة جامدة لا تتخطى المفردات. وغنيّ عن القول أنَّ مدة عمل هكذا مواد شبيهة بمهمتها فعمرها قصير ينتهي عند انتهاء الحاجة التي استُعملت من أجلها!

وغنيٌ عن القول أنَّ لغة الخدمات تحجّم اللغة الحية في قالب معيَّن كأنْ ينحصر تعلُّم اللغة الحيّة بلوائح مفردات تخصّ موضوعاً محدداً، فيكون عندها التعلُّم مجتزأً، لأنَّه لا ينظر إلى اللغة الجديدة كوحدة متكاملة بل مجموعة مواضيع يختار منها المتعلّم ما يخدمه لمرحلة معيَّنة ولمدة محدَّدة. وهذا ما يحدّ من قدرات اللغة الهائلة. فاللغة اياً كانت، عالمٌ متكامل يجمع المنطق والشعور والعاطفة وأن تُختصر اللغة بزاوية معينة يعني اننا نطمس قدراتها الأخرى وأهمها العاطفة. ولغة الخدمة قد تصل إلى تحقيق مبتغى المتعلّم الا أنَّ التعاطي معها وبها يبقى ناقصاً وجامداً. فحيث لا عاطفة ما من ديمومة.

ولا شك أنه عندما يدندن المتعلّم الغنوة بعد أن يحفظها لهو أفضل ردة فعل على أهمية الجانب العاطفي في مواد التعلُّم ووجودها في المواد يكسبها مكانة تستحقها في القلوب وعلى الشفاه بمباركة العقل واطمئنانه.

الهوامش

٢ يحمل كل قسم عنواناً هو في الحقيقة عنوان اغنيات مشهورة.
- "الرسم بالكلمات" قصيدة لنزار قباني غنّاها كاظم الساهر
- "غنّيلي شوي شوي" لأم كلثوم
- "أنا قلبي دليلي" لأسمهان

٣- وقد تأسس في بكفيا عام ١٩٤٥. ٣

٤ "من الخليج الى المحيط" طريقة لتعليم العربية لغير الناطقين بها، صدرت عن منشورات ديديه – مكتبة أ – هاتيه، باريس ١٩٧٩ – ١٩٨٠ في جزئين وأربعة كتب: إثنان للطالب وإثنان للمعلّم. وتغطي اربعمائة ساعة تعليم.

٥ "توابل وحرير" مواد تربوية عمل على وضعها فريق من مؤلفي مركز الأبحاث والدراسات العربية وتتألف من أربعة مستويات يغطي كل مستوى ٨٤ ساعة.

٦ لسان العرب، ابن منظور، مطبعة صادر، الجزء التاسع.

٧ النابغة الذبياني

٨ الأغنية رقم ٢ – من مواد توابل وحرير، المستوى الثاني A٢

٩ Naoum: Chomsky ، ١٩٦٥: مبادئ التعليم التفاعلي، منتديات بوابة العرب vb.arabsgate.com